الملاحظ البلاغية لعلمي (المعاني والبيان)

في جامع البيان للطبري في سور الطواسين

.....

أ .م .د. وفاء فيصل إسكندر

قسم علوم القرآن والتربية الاسلامية، جامعة الموصل – العراق

البريد الإلكتروني: Dr.wafaa.f.eskander@uomosul.edu.iq

الملخص

اعتنى علماء التفسير منذ القدم بالجوانب اللغوية والنحوية والبلاغية في القرآن الكريم، وكانت البلاغة من العلوم المهمة التي اسهمت في بيان جوانب مهمة من جوانب البيان ، وسنقف في دراستنا هذه على الطبري (ت ٣١٠هـ) وما جاء في تفسيره (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) للسور التي تبدأ ب (طس) من فنون بلاغية اطلقنا عليها (ملاحظ) ، ولم نترجم للطبري لكثرة الدراسات عنه ،وقد استهلت الدراسة بتمهيد ومبحثين , عرضنا في التمهيد: مفهوم البلاغة وتطورها ووضحنا علاقتها بالتفسير ثم ذكرنا المقصود بالملاحظ البلاغية وقد انتظمت الدراسة التطبيقية على مبحثين ، عرضنا في المبحث الأول: الملاحظ البلاغية في علم المعاني ، وفي المبحث الثاني: الملاحظ البلاغية في علم البيان ، اما علم البديع فلم نجد فيما وقفنا عليه من سور الطواسين حصراً اشارة اليها من قبل الطبري وذلك لطبيعة الدراسة التي كانت الغاية منها بيان وجود مظاهر بلاغية في تفسير الطبري وانتهت الدراسة بخاتمة ذكرنا فيها ابرز ما جاءت به الدراسة وتوصلت اليه .

والمُلاَحَظَةُ: ملحوظة؛ تعليق أو تنبيه يكتب أو يُلقى حول رأي أو موضوع، مُلاحَظَة على كلامك: استدراك عليه، المُلاحَظَة: المهارة في النظر إلى الشَّيء بدقة.

الكلمات الدالة: البلاغة، التفسير، علم المعاني، علم البيان

The rhetorical notes of my science (Al-Ma'ani and Al-Bayan) in Al-Tabari's Jami' Al-Bayan in Surat Al-Tawasin

Asst. Prof. Dr. Wafaa Faisal Iskandar
Department of Quranic Sciences and Islamic Education, University of Mosul – Iraq
Email: Dr.wafaa.f.eskander@uomosul.edu.iq

Abstract

Exegesis scholars have been interested since ancient times in the linguistic, grammatical and rhetorical aspects of the Holy Qur'an, and rhetoric was one of the important sciences that contributed to clarifying important aspects of the statement. For the surahs that begin with (Tas) from rhetorical arts, we called them (observed), and we did not translate for al-Tabari due to the large number of studies about him, and the study began with a preface and two sections. In the first topic, we presented: rhetorical observations in the science of meanings, and in the second topic: rhetorical observations in the science of eloquence. As for the science of al-Badi', we did not find in the surahs of al-Tawasin exclusively a reference to it by al-Tabari, because of the nature of the study whose purpose is to show the existence of rhetorical manifestations In Tafsir al-Tabari, and the study ended with a conclusion in which we mentioned the most prominent findings of the study

المقدمة

العلاقة بين التفسير والبلاغة

ان اهم عوامل تطور علم البلاغة هو القرآن الكريم وتفسيره؛ وتعد البلاغة أداة من أدوات المفسر تساعده على استنباط معاني الآيات ،وبيان أوجه الإعجاز القرآني، وان كان هذا العلم قد تأخر قليلاً في تسمية مصطلحاته إلا أن ولى التفاسير قد اقتصرت على ذكر بعض من مصطلحاته والوقوف عليها ،فقد كان الهدف الاساسي للتفسير هو الكشف والتوضيح و الوقوف على الطريقة التي ينفذ بها هذا الكلام إلى القلوب والعقول معاً ، وإن العلاقة بينَ علم البلاغة وعلم التّفسير هي علاقة تبادُليّة؛ وإنَّ البذورَ الأولى لعلم البلاغة قد نشأت في أحضان المفسِّرين الأوائل وفي رحاب القرآن الكريم، وبعدَ أنْ نَضِجَ علمُ البلاغةِ أفادَ منه المفسِّرون بشكل اوسع واكبر ، فظهرت التَّفاسيرَ البيانيّةَ التي تعني بإعجاز القرآن الكريم لُغويّاً وبلاغيّاً، وتلتفتُ إلى جمال عبارتِه وتمثيلاته وفنونه [١] وتمثل البلاغة أحد أدوات المفسر لتقريب المعاني القرآنية ومساعدته في استنباط الأحكام الفقهية وغيرها والوصول إلى المعاني التي يقصدها القرآن الكريم، ,وأن كلاً من (اللغة والنحو والبلاغة) تسمى علوم الآلة التي يستعين بها المفسر ولا غنى له عنها ، وهذه العلوم كانت متداخلة في بداياتها ، ومن الصعب ايجاد حدود فاصلة بينها فبعضها يؤدي إلى بعض ويكمله ، فهي أدوات للكشف عن إعجاز القرآن الكريم وبيان اسراره والعلم بمعانيه، وصلة علم البلاغة بعلم النحو هي صلة وثيقة ممتدة من جذورهما الاولى مما لا يدع مجالاً للشك بأنهما يمثلان أهم دعامة من دعائم علم التفسير فعلى المفسر أن يكون على علم كامل ودراية متقنة بالنحو وقواعده ،وأصوله لفهم معناه وتحديد المراد منه، ولا يخفى أن الأساس الذي قام عليه علم المعاني في البلاغة قائم على ــ(نظرية النظم) وهي توخي معاني النحو وهذه النظرية هي التي جمعت بين علمي النحو والبلاغة وهي نتيجة تفاعل اقوال عالمين سيبويه(ت١٨٠هـ)النحوي ،وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)البلاغي و"ان نقل المعلومات من حقل من حقول المعرفة الى حقل اخر له اثر كبير في هذه المعلومات والمعارف ، وخصوصاً اذا كانت تتلاءم مع الحقل الجديد ، وقد قدم لنا عبد القاهر الجرجاني نموذجاً ناجحاً لهذا الضرب من تحريك الافكار وادخالها في حقول علمية جديدة وذلك حين كان ينقل كثيراً من افكار سيبويه الى البيئة البلاغية "[٢] ،ان موضوعَي (علم المعاني) و(علم النحو) واحد، فهما يبحثان القوانين التي يجب مراعاتها في تأليف الكلام، والعلاقات القائمة بين الكلمات في الجملة وبين الجمل بعضها مع بعض، وأثر ذلك على أداء المعنى المقصود، وان "وظيفة النحو استخراج مبادئ اللغة ونظمها استناداً الى الاستعمال المشترك أو ما يظن انه مشترك ، وغايته القصوى حماية اللغة من الفساد والحرص على أن تواصل أداء وظيفتها الاصلية: الابلاغ ، ووسيلته في ذلك ضبط المعايير التي نفصل بها بين الخطأ والصواب ويطابق المتكلم باحترامها بينها وبين التعبير حاجته في التعبير المستقيم ،أما البلاغة فوظيفتها وصف الطرق الخاصة في استعمال اللغة وتصنيف الأساليب بحسب تمكنها في التعبير عن الغرض تعبيراً يتجاوز الابلاغ الى التأثير في المتكلم أو اقناعه بما نقول أو إشراكه في ما نحس به وغايتها مد المستعمل بما تعده انجع طريقة في بلوغ المقاصد "[٣] ،فكل من النحو والبلاغة هدفهما تفسير النص القرآني ومعرفة

دقائق الفاظه وتراكيبه التي انفرد بها ،وبيان سماته التعبيرية للآيات الكريمة واستخلاص معانيها.ولا يمكن انكار الصلة الوثيقة بين علمي التفسير والبلاغة ، فلا يجوز إقصاء البلاغة عن التفسير ، وإبعادها عن وظيفتها في الوقوف على الخصائص التعبيرية ، ناهيك عن التأثير الذي تحدثه بلاغة آيات الكتاب العزيز في نفس السامع لها ، والقارئ وإيصال المعنى إلى قلبه في أحسن صورة من اللفظ ،وللوقوف على العلاقة بين البلاغة والتفسير، لابد لنا من التعريف بكلا العلمين: ، فعلم التفسير، هو: العلم الذي يعين على كشف وبيان معاني آيات القرآن الكريم، واستخراج الأحكام منها، أما البلاغة (لغة) فهي: الوصول والانتهاء، وعرّفها صاحب التلخيص (اصطلاحاً)، فقال: "البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته .. فالبلاغة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى بالتركيب" [٤] أما مصطلح التفسير، غرضه البيان والكشف والإيضاح لمعنى الآية، ويشترط في المفسر العلم بكل ما يتعلق بالبيان ويؤثر فيه من البلاغة وعلوم القرآن كأسباب النزول والمكي والمدني ونحو ذلك مما يتعلق بتوضيح المعنى وتقويته مع الاهتمام بمعرفة عبارات السلف ودلالاتها في بيان الألفاظ، نفهم من هذا أن سلامة تركيب الكلمات إذا أدى إلى إفادة معنى يكون هذا من البلاغة، أي إن الكشف عن المعنى والوصول إلى المقصود هو من البلاغة وتأتي بإشكال متعددة. في صوره البيانية من تشبيه ،واستعارة ،وكناية ،وتمثيل و، وصل وفصل ، وما يتفرع من ذلك من استعمال حقيقي ، أو استخدام مجازي ،أو استدراك لفظي، أو استجلاء للصور ،أو تقويم للبنية، أو تحقيق في العلاقات اللفظية والمعنوية ،أو كشف الدلالات الحالية والمقالية. والبحث في هذا الجانب يعد بحثاً أصيلاً في جوهر الإعجاز القرآني ومؤشراً دقيقاً في استكناه البلاغة القرآنية ، وبالمعاني التي تتأثر دلالة ألفاظها بالسياق ، وبكيفية دلالتها من حقيقة ،ومجاز، وكناية، وتعريض، وتنظيم للكلام على ما يقتضيه العقل ، وبأثر أصوات الحروف في نفس السامع ، وبالجملة فعلم البلاغة يهتم بكل ما يُبْلِغ به المتكلم قلب السامع بالمعنى المراد إقناعاً وتأثراً بحيث يوافق ما تقتضيه حال المخاطب ، ولذلك عرف بأنه (مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال) والمراد أن حال الشخص الذي تخاطبه تتطلب أن يصاغ له الكلام صياغة تناسبه وتبلغ المعنى إلى قلبه فإذا جاء المتكلم بما يطابق هذا المطلوب كان كلامه بليغاً وتفصيلات هذا تفوق الحصر والإحصاء وفهم المعاني بناءً عليها يكشف عن أدق المعاني ومناسبتها للمخاطب. ولأن مقصود هذه المقالة هو بيان أثر هذا العلم في فهم القرآن علم البلاغة فيهتم بمعنى المادة في الكلمة المفردة ، وبمعنى صيغتها .

ان الغرض البلاغي هو البحث والكشف عن وجوه وأسرار الإعجاز القرآني وذلك بطرق فنية وقواعد علمية فلعلوم البلاغة دور مهم في الوصول الى سر إعجاز القرآن ،والبلاغة فن سابق في الوجود على البلاغة من حيث كونه علماً ، لان البلاغة كعلم لم تستنبط إلا في مرحلة متأخرة عن وجود موضوعها ومجالها الذي برزت فيه . في الدراسات اللغوية ، عن علم النحو وعلم الصرف وعلم العروض إنما وجدت نتيجة للبحث والدراسة في النصوص النثرية والشعرية .. والعربي إنما كان يتكلم على هدى من علمي النحو والصرف دون وقوفه على تلك الاصطلاحات التي جدت في عصر الدراسة والتدوين .[٥] ان نشأة البلاغة في العصر الجاهلي تمثلت في الملاحظات التي يذكرها النقاد على الشعر وبيان مواطن الجودة والرداءة فيه ،اما في العصر الاسلامي فقد كان للقرآن الكريم والحديث الشريف اثر كبير في تطور

الملاحظات البلاغية لما في اسلوب القرآن من بيان وروعة .واسهمت أحاديث الرسول عليه السلام في تطور الملاحظات البلاغية لأنه –عليه السلام–كان بليغاً فصيحاً .. وكانت خطب الصحابة ابي بكر ، وعثمان ،وعلي ، والامثال ، والحكم المأثورة ، نماذج للأسلوب البليغ ، وفي العصر الاموي : كانت ملاحظات هذا العصر ترجع الى الذوق العربي والاحتكام الى اللغة كالنحو والصرف واستقرت الاتجاهات النقدية في هذه المدة .. وقد كثرت الملاحظات البيانية ومع هذا الاتساع في إدراك الملاحظات البلاغية ، فقد ظلت –كما هو الحال في العصرين: الجاهلي والاسلامي –متصلة بالنقد في ادق معانيه . اما في العصر العباسي فقد تجددت الحياة في كل جانب من جوانبها ،وازدهرت الثقافة والفكر ازده[٦]اراً عكس آثاره على كل لون من ألوان الحضارة الاسلامية.و ذلك لعدة اسباب الامتداد الزماني من سنة (١٣٢هـ – ٦٥٦هـ) وطول هذا العصر ،والامتداد المساحي باتساع رقعة الدولة الاسلامية ، الامتداد الثقافي في جميع الفنون ونشطت حركة الترجمة من اللغات الاجنبية العرب الى اللغة العربية وسمي هذا العصر بالعصر الذهبي [٧] , وقد قسمنا الملاحظ عند النحويين والنقاد الى ثلاث مراحل:

اولا: الملاحظ البلاغية قبل الطبري

١. سيبويه (ت١٨٠هـ) في كتابه (الكتاب)ومع أنه كتاب نحوي الا انه إتسم بغزارة الشواهد القرآنية والعناية بتحليلها وبيان معانيها وله الكثير من الملاحظ البلاغية ففي قوله تعالى (بل مكر الليل والنهار) (سبأ ،٣٣) قال عنها فالليل والنهار لا يمكران ولكن المكر فيهما وله غيرها الكثير من الالتفاتات البلاغية [٨]، فالمجاز في هذه الآية مجاز عقلي علاقته المكانية وهو ما أقره البلاغيون من بعده مثل عبد القاهر الجرجاني والسكاكي ويعد كتابه مدخلاً الى التفسير ومنهجاً فيه [٩] فقد مزج بحوث النحو بالبلاغة ، وعرض لبعض الخصائص الأسلوبية التي عنى بها فيما بعد (علم المعاني)... كما تكلم عن التشبيه في باب ما يكون من الاسماء صفة لمفرد وليس بفاعل ولا صفة تشبه الفاعل –فأورد له أمثلة مثل قولك "مررت برجل مثل الاسد –إذا كنت تشبهه ، ولكن لم تعرفه. ففي القرن الثاني لم تكن العلوم والفنون قد تحددت بعد أو دخلت في دور التنسيق والتصنيف، والتقسيم، ووضع المصطلحات هنا وهناك عنوانا علي كل قسم، وتمييزا له عن سائر الأقسام، وإنما كانت العلوم والفنون وقتئذ متداخلة يصب بعضها في بعض ويثري بعضها بعضا، فاللغة، والنحو، والبلاغة كلها كانت بمثابة روافد متعددة تصب في مجري واحد هو إثراء اللغة والمحافظة علي سلامتها، وإبراز جمالها وسيبويه في كتابه لم يكن متناولاً لفن واحدٍ من هذه الفنون، بل كان متناولاً لها جميعا، ومنظما لها في عقد واحد، فلم يطف بخاطره أو بأذهان المعاصرين له أن يفصلوا بين هذا العلم أو ذاك،أو يضعوا مصطلحا لهذه الفنون أو تلك، ولذلك فان سيبويه في إدراكه لتداخل العلوم قد اهتدى الى ربط النحو بالمعاني، فنفث في النحو روحاً مشعةً لها جلالها وقيمتها حتي تطورهذا الربط إلي أقصى درجاته وبدا واضحاً عند عبد القاهر الجرجاني ،فقد ذكر سيبويه موضوعات تدخل في علم المعاني كالحذف والزيادة، والذكر والإضمار، والتقديم والتأخير، والاستفهام والقصر، والفصل والوصل، والمجاز العقلي، والتعريف والتنكير ومقتضي الحال، القلب، وتعرض لصور من خروج الكلام علي مقتضي الظاهر، ولم يفته أن يتناول أسرار التراكيب وتأليف الكلمات، والجمل وصوغ العبارات، وابراز الفرق بين تعبير

وآخر، إن اهتمامه لم يكن قاصـــراً علي أواخر الكلمات، و بيان إعرابها و بنائها وإنما تجاوز ذلك إلي نظم الجملة ولا شك أن هذه المسائل البلاغية التي طرقها سيبويه في كتابه تناولت الكثير من أبواب البلاغة، ولذلك فان اغلب علماء البلاغة قد اغترف من هذا البحر الزاخر دون أن ينضـــب له معين، وافادوا مما جاء في (الكتاب) وكان مصدراً مهماً لتأسيس علم المعاني في مسائله البلاغية .

٢. الفراء(ت٢٠٧هـــــ) كتاب (معاني القرآن) ويغلب عليه الطابع النحوي ، وقد تناول فيه تفسير بعض الآيات المنتقاة من الســـور وقد ذكر فيه بعض المصـــطلحات البلاغية ،وقد افاد الطبري منه في تفسيره فهو يذكره باسمه ويوثق قوله منه .

٣. أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠هـ) فقد صنف كتابه (مجاز القرآن) سنة ١٨٨هـ ، وكان من أبرز الملاحظات التي أثارها القرآن تشبيهه "شجرة الزقوم : برؤوس الشياطين ، وهي ليست معروفة عندهم . وكانت هذه الملاحظة ســـبباً في وضـــع أبي عبيده كتابه (مجاز القرآن) وهو لم يقصـــد به معنى المجاز المقابل للحقيقة وإنما عني به التفسير والطرق التي يسلكها القرآن في التعبير ،وهذا المعنى أعم مما حدده علماء البلاغة لكلمة (المجاز) فيما بعد "الا ان مفهوم المجاز فيه ، لم يتمحض للدلالة على المفهوم اللغوي قســـيم الحقيقة بل بقي عاماً تتحدد به مدلولات متعددة في نفس النص "[١٠] ومع أنه تحدث فيه عن بعض الوجوه والملاحظات البلاغية كالتشـبيه ،والاسـتعارة ،والكناية ،والتمثيل، لكنه لم يصرح بذكر اسمها ومع ذلك يمكننا القول إن كتاب (مجاز القرآن) يمثل المحاولة الأولى في كشف ما جاء من المجاز بمعناه العام في اسـلوب القرآن وإن فهم المجاز كان سـائداً في الدراسـات اللغوية الاولى التي انطلقت من القرآن الى اواخر القرن الثاني ومطلع الثالث بدليل اننا نجده بنفس المعنى عند مؤلف آخر معاصـــر لأبي عبيدة واشـــتغل مثله بالنص القرآني (الفراء) في كتابه (معاني القرآن) ،.واخذ عنه الطبري في تفسيره موثقاً قوله بذكره .

٤. الجاحظ (ت ٢٥٥هـــــ) في كتابيه (البيان والتبين)و(الحيوان) بحث فيهما بعض الصـور البيانية في القرآن و وضـــع في كتابيه الكثير من التوجيهات البلاغية وهو اول من صـــرح بلفظ الاســـتعارة .هذا فضلاً عن كتابه(نظم القرآن) الذي عد مفقوداً الا ان من جاء بعده اشار اليه ونقل عنه وقد تحدث فيه عن كثير من الفنون البلاغية ، واطلق المجاز بمعناه العام على كل الصـــور البيانية عند تناوله لكثير من نصـــوص القرآن ثم انه تناول مفهوم البيان ووقف علية لكنه عرفه بمفهومه العام الذي يرتبط بالمفهوم البلاغي .وكان من اوائل من كتب فيه الجاحظ (ت٢٥٥هـــــ) فقد ذكر بعض المصطلحات البلاغية في تبويباته في كتابه (البيان والتبين)ك فاطلق (باب البيان، باب البلاغة، باب الأسـجاع في الكلام)[١١]، وقد خصص كثيرا من مباحثه في كتابه (نظم القرآن) إلى استيفاء مجال العبارة، واستخراج ما فيها من مجاز وتشـــبيه بمعانيها الواســـعة غير المحددة، إلا أن هذا العرض من قبل الجاحظ جاء مجزأ ومفرقا ولم يكن متفرغا للقرآن كله بل لبعض من آياته كما يبدو ذلك من خلال معالجته البيانية في كتبه ولم تكن المصطلحات البلاغية محددة بعد بل كانت متداخلة مع العلوم الاخرى ومع فنونها فيما بينها.

٥. ابن قتيبة(ت٢٧٦هـ)في كتابه(تأويل مشكل القرآن) تناول فيه جملة من الملاحظات البلاغية والمجازات بمعناه الواسع ،وعرض صوراً من القرآن الكريم ،وتكلم عن الايجاز ، وكان صريحاً في الدلالة على الكناية الاصطلاحية وأتى بأمثلة هي بعينها التي رددتها كتب البلاغة .

٦. المبرد (ت ٢٨٥هـ) كتابه (الكامل) عقد فيه فصلاً عن التشبيه وتحدث فيه عن تنوع أضرب الخبر .. وقد فتح للبلاغين فصلاًفي (علم المعاني) سموه اضرب الخبر .

٧. ابن المعتز(ت ٢٩٦هـ) في كتابه(البديع)تحدث فيه عن محاسن الكلام وفصل في قسم منها وذكر ان ما يسمى بديعاً موجود في كلام الجاهلين والاسلامين وفي القرآن الكريم والحديث [١٢] تناول فيه أبواباً في: الاستعارة والجناس والمطابقة والالتفات والتعريض والكناية والتشبيه وغيرها[١٣]

ولقد تنوعت هذه الملاحظات البلاغية بين كتب النحو والنقد ولم نجد كتاباً خاصاً بالبلاغة أوتفسير كامل للقرآن حتى كتابا (مجاز القرآن ،ومعاني القرآن) فقد وقفا عند آيات معينة في السور، ولم يشهد هذا العصر كتاباً ضخماً فسر القرآن كما فعل الطبري فكان اول مفسر في ذلك جمع فيه بين علوم العربية والتفسير .

ثانياً: الملاحظ البلاغية عند الطبري ومنهجه .

عرف عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) في منتصف القرن الاول للهجرة صحابياً مفسراً بالمأثور وبقى طوال قرنين من الزمن، الا ان جاء الطبري فصنف تفسيره (جامع البيان) الذي برع بهذا النوع من التفسير بعد ابن عباس ويعد ،من اشهر التفاسير ومن اوائلها , وهو المرجع الأول للتفسير بالمأثور حيث انه يذكر الآية ثم يذكر اقوال الصحابة والتابعين في تفسيرها بأسانيدها ويمثل المرجع عند المفسرين الذين عُنوا بالتفسير النقلي, وفي الوقت ذاته فهو ذو أهمية في التفسير العقلي؛ وذلك لما فيه من الاستنباط وتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض ، يسمى منهج الطبري بالمنهج الجامع ,لأنه جمع بين الاتجاهين الأساسين في التفسير وهما (الأثر واللغة ،), فضلاً عن استنباطاته وترجيحاته [١٤],وقد اوضح منهجه في مقدمة تفسيره وبين غايته وهي ادراك المعنى الحقيقي في النص القرآني" فهو يحب ان يفهم المعاني الواردة في النص على الصورة التي يحب صاحب النص أن تفهم وذلك هو معناها الصحيح الوحيد المفضي الى السلوك الصحيح الذي يتوقف عليه الثواب والعقاب .. وهي مواضع تتعلق بالمعنى"[١٥] فقال الطبري "فوقفت لإصابة صواب القول في محكمه ومشابهه وحلاله وحرامه وعامه وخاصه ومجمله ومفسره وناسخه ومنسوخه وظاهره وباطنه وتأويل آية وتفسير مشكله ،والهمت التمسك به والاعتصام بمحكمه والثبات على التسليم لمتشابهه"[١٦] وقد اتبع في ذلك التحري والبحث في شتى المعارف وكانت اللغة من ابرز العناصر التي وقف عندها "وما اللغة إلا عامل متمم مؤكد للشرح المنقول وبذلك فإن الطبري لا يشرح القرآن بل يحقق في الرواية بحثاً عن اقدم الشروح له وهو الشرح النبوي واللغة عنده رافد أو وسيلة في خدمة الشرح المنقول يبطل التعويل عليها ان خالفت أقوال السلف"[١٧] وان المفسرين في بداياتهم اخذوا بالبحث في القرآن الكريم عن غريبه واعرابه ومعانيه في المعنى الواسع للغة وقبلهم جميعا كان شيخ المفسرين الإمام الطبري الذي سمى تفسيره (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) فأودع فيه نظرات بيانية عميقة الفهم في كتاب الله عز وجل. وجعل الوقوف على دقائق أسرار البيان من جهوده

في معرفة تأويل القرآن، وقد كتبت الدراسات العلمية حول تفسير شيخ المفسرين رحمه الله، وجهوده البيانية العميقة للوصول للمعنى القرآني مستخدما اللغة ودقائقها، وقد عني الإمام الطبري في تفسيره بالأساليب اللغوية وما فيها من إشارات بلاغية كثيرة ، ان حق لنا التعبير عنها ب (الملاحظ البلاغية) فهو حاله كحال من كان في عصره لم يسمها بتسمياتها البلاغية التي عرفت بها البلاغة فيما بعد ، والسبب في ذلك يعود الى أن المفاهيم البلاغية لم تتضح معالمها في ذلك الوقت وان مصطلحاتها لم تتحدد فقد وضعت في عهد متأخر بعده بمدة، لكن كانت قد بدأت الملامح لظهور هذا العلم قبل وفاة الطبري ، أما التدوين الحقيقي لعلم البلاغة بمصطلحاته وألفاظه فلم يتم إلا بعد الطبري بفترة، واستمرت الدراسات البلاغية على هذا المنوال, من هنا يمكن القول ان قلة الملاحظ البلاغية عنده لسببين اولهما: ان المصطلحات البلاغية لم تعرف وثانيهما : طبيعة منهجه في التفسير فهو يورد الاقوال المأثورة والاحاديث المرفوعة للرسول (صلى الله عليه وسلم) واقوال الصحابة والتابعين واتباع التابعين يوردها بأسانيدها حيث يعد تفسيره من اوائل كتب التفسير بالمأثور،وهو يستهل تفسيره في الآية بالشرح اللغوي مدخلاً وممهداً لأقوال السلف .

المقصود بالملاحظ البلاغية التي جاءت عنواناً لبحثنا هي: ما ذكره الطبري من مصطلحات بلاغيه خاصة في علمي المعاني والبيان عند تفسيره للآيات في سور الطواسين

أي ذكر الآيات التي أشار فيها الطبري إشارات بلاغية, وهو وإن لم يطلق عليها عنواناً للفن البلاغي الذي تندرج ضمنه إلا أننا جعلناها في مبحثين، ولابد من الإشارة إلى أنه لم يكن فيما وجدناه من ملاحظات بلاغية في تفسير السور الثلاث (الطواسين) حصرا، أيَّ التفاتة من علم البديع ولذلك لم نورده في المباحث واكتفينا بعلمي (المعاني والبيان) ووجدنا أن الآية الواحدة قد تكون متضمنة أكثر من فن من فنون البلاغة إلا أننا أدرجناها ضمن ما أشار إليه الطبري في تفسيره حسب توجيهه وهي كثيرة عنده في علم المعاني بينما اقل في علم البيان وقد وقفنا على بعض النصوص المختارة، لبيان ان الجذور البلاغية موجودة في كتب التفسير.

ولم نتوقف عند الطبري استكمالاً لمتطلبات البحث فأوجزنا القول في الملاحظ البلاغية الى ما بعده واستقرار الفنون البلاغية وتقسيماتها .

ثالثاً: الملاحظ البلاغية بعد الطبري

برز في هذه المرحلة العديد من النقاد والبلاغين الذين لم يخرجوا عن سابقيهم، ممن ذكر الملاحظ البلاغية منهم أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) في كتاب (الصناعتين) الذي وقف عند مفهوم البلاغة وبين اهميتها في النص القرآني ، وابن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ) في كتابه (العمدة) وابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) في كتابه (سرّ الفصاحة) ، وكانت الحال مختلفة عند عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) وكانت البداية لاستقرار المصطلحات البلاغية في كتابيه (أسرار البلاغة) ، و(دلائل الإعجاز)، فهو عالم واسع الثقافة مرهف الحس، متوقد الذكاء، استخدم ذلك في استنباط الأصول الاستعارية والأبعاد التشبيهية، والمعالم المجازية لآيات القرآن الكريم وأخضعها كونها نماذج حية للتطبيق العلمي. وهو بذلك أوسع بكثير ممن سبقوه في هذا المضمار، وقد نقل عبد القاهر الجرجاني في كتابه

(دلائل الاعجاز)مقولات سيبويه النحوية مشيراً اليه وبسطها بسطاً بلاغياً فصارت فروعاً ممتدة ومتنوعة ،وان اكثر مباحث علم المعاني ترجع الى هذه الجذور النحوية .فنقل الكثير من افكار سيبويه الى البيئة البلاغية(١٨).

وأول الكتب التي جمعت بين التفسير والبلاغة وعرفت بالتفسير البلاغي كتاب (الكشاف) للزمخشري (ت ٥٣٨هـ) الذي ربط البلاغة بالتفسير بشكل ملحوظ وقد صرح في مقدمته فقال "واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل برع في علميين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة وتعب من التنقير عنهما ازمنة وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله"(١٩)،وغيرها فهو وإن لم تكن تعريفاته مطابقة لما هي عليه الآن إلا أنها مقاربة لمعناها، أن المبدأ الغالب عليه في جهوده التفسيرية ، تبيين ما في القرآن من الثروة البلاغية التي كان لها أثر كبير في عجز العرب عن معارضته والإتيان بأقصر سورة من مثله . والّذي يقرأ ما أورده الزمخشري عند تفسيره لكثير من الآيات من ضروب الاستعارات، والمجازات، والأشكال البلاغية الأخرى، يرى أن الزمخشري كان يحرص كل الحرص على أن يبرز في حلة بديعة جمال أسلوبه وكمال نظمه، ولا يوجد تفسير أوسع مجالاً في جهوده في هذا الباب من تفسير الزمخشري. أمّا أثر (الكشاف) من الناحية البلاغية بين المفسرين، فإن كل من جاء بعده من المفسرين استفاد من بلاغته. واعتمدوا على ما فيه من نكت بلاغية تكشف عما دق من براعة نظم القرآن وحسن أسلوبه. والزمخشري بدوره في تفسيره استفاد من سابقيه من المفسرين بدءً بالطبري والسمرقندي والثعالبي والبغوي وابن عطية (٢٠) استفاد من عبد القاهر الجرجاني في الكثير من المسائل البلاغية التي ذكرها.

بدأت بعده مرحلة جديدة أخذ العلماء فيها يسجلون ملاحظاتهم الاصطلاحات للبلاغية بدأت بالسكّاكي (ت٦٥٦هـ) في كتابه (مفتاح العلوم), ومن جاء بعده بدر الدين بن مالك (ت٦٨٦هـ) ، الف كتابه (المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع) سار فيه على تقسيمات السكاكي، إلا أن أكثر من اشتهر وذاع صيته في هذا المجال كان القزويني (ت٧٣٩هـ) في كتابيه (الإيضاح في علوم البلاغة) و (التلخيص), حيث استقرت المصطلحات البلاغية عنده , ظهرت الشروحات بعده التي رسخت الكثير من المفاهيم البلاغية ووضحتها وأخذت الشكل المعروف حالياً ،وقسمت البلاغة الى ثلاث علوم: المعاني ،والبيان ، والبديع .

المبحث الاول :

الملاحظ البلاغية في علم المعاني

ليس عبثاً أن أطلق العلماء على أبرز قسم من أقسام البلاغة علم المعاني ، فلولا التصاقه بالمعاني وكشفه عنها لما كان لهذه التسمية كبير فائدة. وإن اختيارَ اللفظة القرآنية الذي هو من مظاهر البلاغة أمرٌ شديد الصلة بالمعنى الذي تفيده الآية، علم البلاغة فيهتم بمعنى المادة في الكلمة المفردة ، وبمعنى صيغتها ، وبالمعاني التي تنشأ من حركات تركيب الكلمات ومواقع الكلمات في الجمل ،ويمكن تعريف علم المعاني بأنه "علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال"(٢١)_ فهو متعلق

بالنحو ومرتبط به"النحو طريق البلاغة ، ولســـنا نبعد إن قلنا: إن علم المعاني والنحو من عباءة واحدة ، إلا أن النحو موكل بضبط أواخر الكلمة ليعرف خبر كان من اسمها ، فللنحوي أن يشير إلى الحذف في عبارة ما وله أن يبين حكم هذا الحذف أجائز أم واجب ؟ وله أن يقدر المحذوف ، وله أيضاً أن يبين جواز التقديم أو وجوبه أو امتناعه ، ولكن البلاغي هو المعني بتلمس الســر الجمالي المختبئ وراء ذلك الحذف ، والجمالية التي اضــفاها هذا التقديم على الجملة والســياق العام .فالنحو يضــبط الأحكام المعيارية التي تعصم الكلام من الخطأ وإن علم المعاني يتكلم عن جمال هذا الكلام وأثره في النص والمتلقي

وان لعلم المعاني: أصـــول وقواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام لمقتضـــى الحال مع الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد . وواضعه: الشيخ (عبد القاهر الجُرجاني) المُتوفي (ت ٤٧١ هـ).حيث قال "اعلم أن ليس "النظم"إلا ات تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو" ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تخل بشيء منها "[٢٢] وَموضـــوعه: اللَّفظُ العربي، من حيثُ إفادتُه المعاني الثَّواني. التي هي الأغراض المقصـــودةُ للمتكلّم، من جعل الكلام مشتملا على تلك اللَّطائف والخصـوصـيّات، التي بها يُطابقُ مُقتضـى الحال. واستمداده: من الكتاب الشَّريف، والحديث النَّبوي وكلام العرب. ويدور هذا العلم حول تحليل الجملة المفيدة إلى عناصرها، والبحث في أحوال كلّ عنصـــر منها في اللّســـان العربيّ، ومواقع ذكره وحذفه، وتقديمه وتأخيره، ومواقع التعريف والتنكير، والإطلاق والتَّقْيِيد، والتأكيد وعدمه، ومواقع الْقَصـــرِ وعَدَمه، وحَوْلَ اقتران الجمل المفيدة ببعضـــها، بعطف أو بغير عطف، ومواقع كلٍّ منهما ومقتضـــياته، وحول كون الجملة مســاوية في ألفاظها لمعناها، أو أقلَّ منه، أو زائداً عليه، ونحو ذلك. وان "وظيفته هي النظر في الاسلوب الفني من حيث بناؤه النحوي أي من حيث ترتيب عناصـــره ، والعلاقات الخاصـــة الماثلة بينها في هذا الترتيب ، والكيفيات أو الاحوال (النحوية) التي تتعاورها: من تعريف أو تنكير ، أو ذكر أو حذف ، أو فصل أو وصل ، أو تقييد أو إطلاق ، أو ما الى ذلك من أحوال وكيفيات ينظر إليها هذا العلم بوصـــفها تمثيلاً لغوياً لأدق خلجات النفس "[٢٣] ،وان المعنى اللغوي يمثل الانطلاقة , إذ يعتمد علم المعاني على المعنى الحقيقي للفظ المأخوذ من المعاجم اللغوية, وتأتي المعاني الثواني المعروفة عند اهل البلاغة والبيان , فاللفظ الواحد قائم على معنيين؛ معنى اول: حسي حقيقي وهو ما وضع الفظ له ،والثاني : هو معنى ثان مفهوم من الســـياق معنى مجازي نتيجة تفاعل الالفاظ عبر التراكيب ، فعلم المعاني هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال, ويشمل علم المعاني على عدة مباحث كلها تتصل اتصالا مباشرا بالنحو وتعد من مباحثه منها: (الخبر والإنشاء, التقديم والتأخير ، الفصل والوصل ، اسلوب القصر ، التنكير والتعريف ،الايجاز والاطناب والمســـاواة)، اما الخبر فهو ما يحتمل الصـــدق والكذب لذاته, أما الإنشاء فأنه قول لا يحتمل الصدق والكذب لذاته[٢٤], ينقسم الانشاء إلى قسمين أيضاً؛ الأول: يسمى الإنشاء الطلبي, ويتضمن (الأمر، والنهي ، والنداء ، والتمني ، والاستفهام), أما الثاني: فهو الإنشاء غير الطلبي, ويضـــم: (أســـلوب المدح والذم ، وصـــيغ التعجب ، وصـــيغ العقود ، واســـلوب الترجي والقسم).ولا يخلو أي كلام من هذه الاساليب الا اننا سنقف على ما ذكره الطبري في تفسيره للطواسين (الانشاء غير الطلبي)وهو (اسلوب القسم ، التقديم والتأخير ، الايجاز) .

علم المعاني وملاحظه في الطواسين

اولاً: الإنشاء غير الطلبي (القسم):

القسم لغةً: اليمين وقد اقسم بالله: حلف به"[٢٥]، وهو من الأساليب العربية التى تفيد توكيد الكلام "وهو عند النحويين جملة يؤكد بها الخبر"[٢٦]ويقويه وهو انشاء لفظاً واخبار معنىً ، فهو انشاء كونه مسبوقاً بأداة القسم ومن حيث المعنى خبر مؤكد . ، إذ يعد القسم من مؤكدات الأسلوب الخبري، ويستعمل القسم إذا توقع المتكلم شك المخاطب في الخبر، ولا يجوز الحلف والقسم إلا بالله أو بعض أسمائه أو صفاته، وقد أقسم الله تعالى ببدائع صنعه وخلقه من الموجودات والظواهر في الاوقات، والغرض من الاقسام بها في القرآن الكريم هو" لبيان شرف المقسم به وعلو قدره عنده "[٢٧] ،ومن الملاحظ التي ذكرها الطبري في القسم في قوله تعالى:

(فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ) [الشعراء: ٤٤]، حيث اقسم السحرة بعزة فرعون : "وقالوا بعزة فرعون يقول: أقسموا بقوة فرعون وشدة سلطانه ومنعة مملكته "[٢٨] أي غالبون موسى قال الزمخشري "اقسموا بعزة فرعون وهي من ايمان الجاهلية وهكذا كل حلف بغير الله ولا يصح في الاسلام إلا الحلف بالله معلقاً ببعض اسمائه أو صفاته "[٢٩] لكن مرادهم من القسم القطع بغلبتهم وأنهم سيغلبون لا محالة أي إن الشك والخوف هو الذي دفعهم للقسم فأقسموا بذلك لاعتقادهم أنهم أتوا بأقصى ما يمكن من السحر[٣٠], وقال ابن عاشور "الباء للقسم، أقسموا بعزة فرعون على أنهم يغلبون ثقة منهم باعتقادهم أن إرادة فرعون لا يغلبها أحد لأنها إرادة آلهتهم، وهذا الذي نحاه المفسرون، والوجه الأول أحسن لأن الجملتين على مقتضاه تفيد الفائدتين"[٣١] ، وجواب القسم يتعلق بمحذوف تقديره بسبب عزة فرعون[٣٢]، (انا لنحن الغالبون) وقد توافق قوة تأكيد القسم بقوة جوابه ممثلاً بالأسلوب الخبري المؤكد بأكثر من توكيد (ان + نا + اللام المزحلقة)"ماذا يؤثر قولهم (بعزة فرعون) ؟ فيقولون (انا لنحن الغالبون) وأرادوا بذلك القاء الخوف في نفس موسى ليكون ما سيلقيه في نوبته عن خور نفس لأنهم يعلمون أن العزيمة من أكبر أسباب نجاح السحر وتأثيره على الناظرين. وقد أفادت هذه الجملة بما فيها من المؤكدات مفاد القسم"[٣٣]، أي إن جملة جواب القسم هي (خبر إنكاري) لتضمنها أكثر من مؤكد، وذلك لتوازي جملة القسم، فهم بإظهارهم لليقين بغلبة فرعون لكنهم في قرارة أنفسهم كانوا يخافون من مواجهة موسى عليه السلام, لما علموا من قوة معجزاته. ،ومما ذكره الطبري في القسم على لسان سليمان عليه السلام متوعداً للهدهد في قوله تعالى: لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[النمل: ٢]، قال الطبري: "وقوله: ﴿لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾يقول: فلما أُخبر سليمان عن الهدهد أنه لم يحضر وأنه غائب غير شاهد ، أقسم (لأعذبنه عذاباً شديداً)، وكان تعذيبه الطير فيما ذُكر عنه إذا عذبها أن ينتف ريشها"[٣٤]، فقد أكد القسم المحذوف بلام القسم المؤكدة في (لأعذبنه و لأذبحنه) وبنون التوكيد لبيان عزمه على عقابه وعدم تراجعه عنه وليكون "زاجراً لباقي الجند عن أن يأتوا بمثل فعله فينالهم العقاب "[٣٥]إن تكرار المؤكدات في اللفظين يعطي قوة في الوعد والشدة وفي هذه الآية جاءت ثلاث مؤكدات (لام القسم + نون التوكيد +المصدر) (عذاباً) وجاء توكيد الكلام بثلاث مؤكدات يقابلها ثلاث خيارات فهو إما (العذاب أو الذبح أو الايتاء)

(ليأتينّي بسلطان مبين) والسلطان: هو الحجة والعذر ،أن تأكيد سليمان لكلامه بتلك المؤكدات مع أن الهدهد كان غائباً لأجل أنه إذا حضر أخبره باقي الجند بتوعد سليمان له، وإن لم يحضر كان ذلك زاجرا ورادعا لغيره لكي يعتبروا ويحذروا أن يأتوا بمثل فعله ، و جملة (أو ليأتيني) تفيد معادلة مضمون العقاب وجعل (أو) هنا للتقسيم وليس للتخيير وقد "نظم الثلاثة بـــــ أو في الحكم الذي هو الحلف آل كلامه إلى قولك ليكونن أحد الامور، يعني: إن كان الاتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح وإن لم يكن كان أحدهما وليس في هذا ادعاء دراية على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحي من الله بأنه سيأتيه بسلطان مبين فثلث بقوله (أو ليأتيني بســلطان مبين) عن دراية وإيقان "[٣٦] التأكيد للخيار الثالث الأقوى والأقرب وكأنه على يقين منه ولأنه يعلم طبيعية الهدهد وأنه لا يؤخره عنه إلا لأمر عظيم .

ثانياً: التقديم والتأخير:

هو أحد المباحث البلاغية التي تندرج ضمن علم المعاني والتي اهتم بها النحاة والبلاغيون وتقع داخل الجملة الواحدة أو بين جملتين ، وقد أولاه علماء البلاغة عناية كبيرة لما له من اثر في التركيب من حيث الإعراب والمعنى، وتعلقه بنظرية النظم وقد ذكره عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) مستهلاً الكلام عنها ببيان اهميته فقال" وهو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لايزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضي بك الى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك ، أن قدم فيه شيء ، وحول اللفظ عن مكان الى مكان"[٣٧] يتضح البعد الدلالي والأثر الجمالي التي يتركه المعنى عند تحرك المفردة وتبادل مواقعها في السياق مع بقاء البنية النحوية سليمة لا تخرج عن المألوف الا في حدود معينة و ان تقديم الشيء يكون على وجهين أولهما: هو تقديم على نية التأخير ،أي إن التقديم يكون على حكمه الذي كان عليه ،من جنسه الذي كان فيه كتقديم الخبر على المبتدأ، وثانيهما: تقديم لا على نية التأخير ، أي تنقل الشيء عن حكم إلى حكم وجعل له باباً غير بابه وإعراباً غير إعرابه ، وتتباين اغراض التقديم والتأخير بحسب المقدم والمعنى المقصود فقد نقل الجرجاني عن سيبويه(ت ١٨٠هـ)الغرض من التقديم بقوله "فكأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى،وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم "[٣٨] فمن اهم اغراض التقديم العناية والاهتمام بالمقدم وهناك اغراض وقد عني الزركشي (ت ٧٩٤هـ) في (البرهان) بذكره مفصلاً في أسباب التقديم والتأخير مبيناً اغراضه في القرآن الكريم خاصة [٣٩]

وقد ذكر الطبري المصطلح بقوله (تقديم ماحقه التأخير)، في قوله تعالى ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[النمل: ٢٨]، ، قال الطبري: "فاختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تولّ عنهم منصرفاً إليّ، فقال: هو من المؤخر الذي معناه التقديم"[٤٠]، وقد اشار الفراء (ت٢٠٧هـ) الى هذه المسألة فقال"وقوله: ثم تول عنهم فانظر يقول القائل: كيف أمره أن يتولى عنهم وقد قال (فانظر ماذا يرجعون) وذلك في العربية بين أنه استحثه فقال: اذهب بكتابي هذا وعجل ثم أخر(فانظر ماذا يرجعون) ومعناها التقديم . ويقال: انه أمر الهدهد أن يلقي الكتاب ثم يتوارى عنها ففعل "[٤١]أي تقديم ما حقه التأخير في المعنى ، فكيف يكون الانصراف ؟ عنهم ثم النظر في رجوعهم "والالقاء طرح الشيء حيث تلقاه أي تراه ثم صار

في التعارف اسماً لكل طرح "[٤٢]أي القي الكتاب اليهم(ثم تول عنهم)"أي تنح عنهم الى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بسمع منك "[٤٣](فانظر ماذا يرجعون)"والنظر الانتظار، يقال نظرته وانتظرته وأنظرته أي اخرته"[٤٤] (يرجعون) أي توارى في الكوة بعد ان تلقي الكتاب اليهم تنتظر ماذا يقررون أي " تأخر عنهم بعد القائه الى موضع يأمن فيه على نفسه على ما هو فيه من السرعة لداخلهم شك في أنه هو الملقى له ، أمره بأن يمكث بعد القائه يرفرف على رؤوسهم حتى يتحققوا أمره ، فأشار سبحانه الى ذلك بأداة التراخي بقوله (ثم) أي بعد وصولك وإلقائك (تول) أي تنح (عنهم) الى مكان تسمع فيه كلامهم ولا يصلون معه إليك (فأنظر) عقب توليك (ماذا يرجعون) أي من القول من بعضهم الى بعض بسبب الكتاب"[٤٥] ،ومن صور التقديم والتأخير التي أشار اليها الطبري في الطواسين، تقديم أداة الاستفهام (الهمزة) في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[النمل: ٦٠] قال الطبري: "فقوله: (أإله) مردود على تأويل: أمع الله إله"[٤٦], والاستفهام هو استفهام انكاري خرج لغرض التوبيخ ، بمعنى لا إله الا الله،" ولما ثبت أنه التفرد بالألوهية ، حسن موقع الانكار والتقرير في قوله (أإله) أي كائن (مع الله) أي الملك الاعلى الذي لا مثل له "وهذا الاسلوب من اساليب الاستفهام الذي يخرج به عن معناه الحقيقي في طلب الفهم الى التوبيخ والتقرير، فالله سبحانه وتعالى يستفهم لإقرارهم، وذلك لأن الاستفهام واقع ممن يعلم ويستغني عن طلب الإفهام والاستفهام انكاري و (بل) للإضراب عن الاستفهام الانكاري تفيد معنى (لكن) باعتبار ما تضمنه الانكار من انتفاء أن يكون مع الله إله فكان حق الناس ان لا يشركوا معه في الإلهية غيره فجيء بالاستدراك لأن المخاطبين بقوله (وأنزل لكم) وقوله (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) لم ينتفعوا بالدليل مع أنه دليل ظاهر مكشوف فهم مكابرون في إعراضهم عن الاهتداء بهذا الدليل ، فهم يعدلون بالله غيره أي يجعلون غيره عديلاً مثيلاً له في الالهية مع أن غيره عاجز عن ذلك فيكون (يعدلون) من عدل الذي يتعدى بالباء ، أو يعدلون عن الحق من عدل الذي يعدى ب (عن)"[٤٧] "ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة فان موضع الكلام على انك اذا قلت "أفعلت ؟"فبدأت بالفعل ، كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده. واذا قلت"أأنت فعلت فبدأت بالاسم ، كان الشك في الفاعل من هو والتردد فيه"[٤٨] قال السيوطي : "قال بعض الأئمة: ما جاء على لفظ الاستفهام في القران إنما يقع في خطاب الله تعالى على معنى أن المخاطب عنده علم ذلك الاثبات والنفي حاصل ، فيستفهم عنه نفسه تخبره به ، إذ قد وضعه الله عندها"[٤٩].

ثالثاً: الايجاز:

ان لكل مقام مقالاً ،والبلاغة كما عرفها البلاغيون ،هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، والحال قد تقتضي الإيجاز في القول وطي الكلمات فتكون البلاغة في أن يوجز المتكلم ويختصر كلامه،وقد يقتضي الاطناب إطالة القول فتكون البلاغة في الاطالة واشباع الكلام ,ومن الملاحظ البلاغية التي بدت واضحة عند الطبري هو (الايجاز)وهذا الأسلوب احتل مكانة خاصة في البلاغة، وعد من مناحي الإعجاز في

الأسلوب القرآني، يقصد بالإيجاز الاقتصاد في الفاظ العبارة إقتصاداً لا يؤثر في وضوح معناها اذ هو وقد عرفه البلاغيون : -إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ أو هو أن يكون اللفظ ناقصاً عن أصل المعنى [٥٠] المراد مع الوفاء به .فعبارتا ايضاح المعنى مع الوفاء به تدلان على أن شرط بلاغة الايجاز في نظر البلاغيين هو ان تقوم العبارة على وجازتها واختصارها بوظيفتها التعبيرية اما اذا كان الاختصار يسبب غموضا في المعنى وعدم الوفاء به فأن ذلك لا يعد من الايجاز وعرف السكاكي الايجاز بقوله "هو أداء المقصود من الكلام بأقل عبارة من عبارات متعارف الأوساط" [٥١]،والمقصود بمتعارف الاوساط أي (المساواة) ، ،وينقسم الايجاز الى قسمين [٥٢]: - ١ايجاز القصر ٢- ايجاز الحذف

١-ايجاز القصر : وهو تضمين الألفاظ القليلة معانٍ كثيرة (من غير حذف)فهو الذي لا يمكن أن نعبر عن معانيه بألفاظ مساويه لتلك الألفاظ التي عبر بها عن هذه المعاني .فهو تقليل اللفظ وتكثير المعنى بعبارة اخرى"هو أن يقصر اللفظ على معناه "[٥٣]

٢-ايجازالحذف : - هو أن يحذف جزء من الكلام الذي يعبر به عن المعنى المراد وقد يكون هذا الجزء كلمه أو جملة وهذا المحذوف يمكن ان يستغني الكلام عنه أي يفهم من السياق ولابد من وجود قرينة تدل عليه ."ان الحذف لا يصار إليه إلا اذا بقيت في الكلام قرينة تدل على المحذوف . حتى لا يصبح البيان ضرباً من التعمية والغموض ...وكان لمظاهر الحذف في القرآن الكريم أكبر عون للبلاغيين على تعرف جهاته ورصد حالاته وكشف اسراره "[٥٤] ويكاد يكون أكثر وجوه البلاغة ذكراً عند الطبري في تفسيره للطواسين وقد اشار اليه غالباً بعبارة: في الكلام محذوف استغنى بدلالة ما ذكر عن ذكره[٥٥]،أي بإيجاز الحذف مستدلاً عليه في قوله تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)﴾[الشعراء: ٧٢ – ٧٣] ، تمثل الايجاز في هذه الآية ب(ايجاز حذف)، وقد وضح الطبري ذلك مستشهداً ببيت شعري موضحاً ان ذلك وارد في كلام العرب فقال "قال ابراهيم لهم: هل تسمع دعاءكم هؤلاء الآلهة إذ تدعونهم ؟ واختلف أهل العربية في معنى ذلك: فقال بعض نحويي البصرة معناه هل يسمعون منكم أو هل يسمعون دعاءكم فحذف الدعاء ، كما قال زهير:

القائِدُ الخَيْلَ مَنْكُوبًا دَوَابِرُها قدْ أُحْكِمَتْ حَكماتِ القِدّ والأَبَقا[٥٦]

وقال: يريد أحكمت حكمات الأبق .. وقال من أنكر ذلك من قوله من أهل العربية الفصيح من الكلام ذلك هو ما جاء في القران الكريم، لأن العرب تقول: سمعت زيدا متكلما، يريدون: سمعت كلام زيد ... وفي الكلام متروك استغنى بدلالة ما ذكر عما ترك، وذلك جوابهم ابراهيم عليه السلام عن مسألته إياهم: (هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون) فكان جوابهم إياه: لا، ما يسمعوننا إذ دعوناهم ولا ينفعوننا ولا يضرون، يدل على أنهم بذلك أجابوه"[٥٧]، ، أي هل يُسمعونكم أصواتهم إذ دعوتموهم ' قال الزمخشري "لابد في (يسمعونكم) من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعائكم وقرأ قتادة (يسمعونكم) أي هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم ، وهل يقدرون على ذلك وجاء مضارعاً مع ايقاعه في إذ على حكاية الحال

الماضية ومعناه: استحضروا الأحوال الماضية التي كنتم تدعونها فيها وقولوا: هل سمعوا أو اسمعوا قط وهذا ابلغ في التبكيت"[٥٨] ، وحذف (دعائكم) دلّ عليه (إذ تدعون) ، والاستفهام التقريري ب (هل) لإقامة الحجة عليهم، أي فإذا كانوا لا ينفعون ولا يضرون فما معنى عبادتكم لهم[٥٩]، وقد وقال ابن عاشور انه"جُعل مفعول (يسمعونكم) ضمير المخاطبين توسعا بحذف مضاف تقديره: هل يسمعون دعائكم دل عليه الظرف في قوله (إذ تدعون)وأراد ابراهيم فتح المجادلة ليعجزوا على اثبات انها تسمع وتنفع "[٦٠]، وبذلك أراد إبراهيم اثبات عجز تلك الآلهة التي يعبدونها ويبين ضعف عقولهم بالتزامهم عبادة تلك الأصنام التي لا تعي ولا تفهم .

ومما ذكره الطبري من ايجاز الحذف في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾[النمل: ١٠]، حذف جملة (فألقاها) قال الطبري: "وقوله (فألق عصاك فلما رآها تهتز) في الكلام محذوف ترك ذكره استغناء بما ذكر عما حذف وهو: فألقاها فصارت حية تهتز"[٦١] ، وقدر ابن عطية المحذوف: فألقى عصاه[٦٢] ،أي انه لما طلب منه أي يلقي العصا القاها استجابة للأمر وقال القرطبي: "فألقاها من يده فصارت حية تهتز كأنها جان" [٦٣] ، وجملة (فلما رآها تهتز) دلت عن الجملة المحذوفة وعلى وقوع مضمونها برغم حذفها ،وهنا يتجلى سر من اسرار الاعجاز القرآني في تلاحم الجملة القرآنية من حيث التركيب والمعنى وبيان المحذوف .

ومن إيجاز الحذف، في قوله تعالى: (هل تجزون الا ماكنتم تعملون) [النمل: ٩٠], قال الطبري: "قوله (هل تجزون إلا ماكنتم تعملون) يقول تعالى ذكره: يقال لهم هل تجزون أيها المشركون إلا ما كنتم تعملون إذ كبكم الله في النار، وإلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا بما يسخط ربكم، وترك (يقال لهم) اكتفاءً بدلالة الكلام عليه"[٦٤], وقيل ان القول فيه التفات، وذلك لأن الكلام في الآية التي قبلها كان الكلام فيه عن الغائب ثم عند ذكر الجزاء إلتفت بالكلام الى صيغة المخاطب، وذلك لشد انتباه السامع إلى أن الجزاء يكون من جنس العمل وأن ما يحاسب عليه هو عمله ذاته من سيئات أو حسنات . والرأي القائل بإضمار القول، أي يقال لهم أو قيل لهم، وهو ما ذهب إليه الطبري، تبعه فيه الزمخشري فقال : "(هل تجزون) يجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب بإضمار القول "[٦٥] ، اما الاستفهام ب (هل) فالمراد به النفي أي وما تجزون الا ماكنتم تعملون ،والآية بمجملها هي"تذييل للزواجر المتقدمة ، فالخطاب للمشركين الذين يسمعون القرآن على طريقة الالتفات ...ومقتضى الظاهر أن يقال: هل يجزون إلا ما كانوا يعملون فكانت هذه الجملة كالتلخيص لما تقدم وهو أن الجزاء على حسب عقائدهم وأعمالهم وما العقيدة إلا عمل القلب فلذلك وجه الخطاب إليهم بالمواجهة"[٦٦].

المبحث الثاني: الملاحظ البلاغية في علم البيان

يعد البيان اهم الفنون البلاغية واكثرها فاعلية في النصـــوص فهو يعمل على تحريك العقل والعاطفة في ان واحد فهو عبارة عن رسم الصور عن طريق البنية اللغوية وهدفه الاقناع والتأثير "العرب أمة البيان والفصاحة والبلاغة ،وقد مارسوا البيان شعراً ونثراً .وكانت لهم في العصر الجاهلي خطب بليغة . وقصائد شـــعرية رفيعة ،وأمثال حكيمة ســـائرة ، وتفننوا في اللغة على فنون واســـاليب رائعة واســـتعملوا تعريفات واشـــتقاقات للكلمة واســـتخدموا التشـــبيه والاســـتعارة والتصـــوير والمجاز وغير ذلك من فنون البلاغة "[٦٧] ،والبيان مفهوم واسع تناوله كثير منهم وعرفت به كتبهم في البلاغة والتفسير وهو في البلاغة اهم فنونها وعلومها التي اســـهمت في الكشـــف عن ما وراء المعنى الظاهر فهو فن الايحاء و فن التصـــوير والرســـم بالكلمات وفيه يتجلى ســـر من اســـرار الإعجاز القرآني، وقد وردت كلمة البيان ومشـــتقاتها كثيراً في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)من ذلك قوله تعالى(كذلك يبين الله آياته للناس)،وقوله تعالى (كذلك يبين الله لكم الآيات ،وقوله تعالى (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم)والمعنى المتبادر لهذه الآيات جميعاً هو الظهور والكشف والايضـــاح فالله تبارك وتعالى يبين آياته للناس فيوضـــحها ويكشفها ،فلا يبقى فيها اي خفاء والنبي (صلى الله عليه وسلم)يبين ما انزل الله فيشرحه ويرشد ما فيه من اســـرار ودقائق ،وقد يكون هذا من الرســـول (صـــلى الله عليه وســـلم)توضـــيحاً لمبهم او تفصـــيلاً لمجمل او تقييدا لمطلق وقد يكون غير ذلك مما ذكر في موضوعه.

البيان لغة: له معان عديدة الا انها لا تخرج عن معنى الوضـــوح والانكشـــاف ، **واصـــطلاحاً:** فهو "علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضـــوح الدلالة عليه"[٦٨] والمقصـــود بهذه الطرق هي الفنون البلاغية الاربعة (التشـــبيه ،الاســـتعارة ،المجاز ،الكناية) ،وان [٦٩]"ايراد المعنى الواحد على صـــور مختلفة لا يتأتى إلا في الدلالات العقلية وهي الانتقال من الى معنى بســـبب الملازمات بين المعاني "فهذه الفنون تشـــترك كونها تعبر عن المعنى بأسـلوب غير مباشـر من خلال طرقها محققة التأثير والاقناع فهي تخاطب العقل والوجدان .وسنقف على ابرز ما ذكره الطبري في الطواسين .

أولاً: التشبيه:

التشـــبيه من الفنون البيانية واقربها الى النفوس وقد انطلق من مفهوم تقريب المعاني العقلية في الذهن وايجاد ما يشـــبهها من معاني حســـية والجمع بينهما في ســـياق واحد ثم البحث عن خصـــائص كل منهما لإيجاد صـــفة مشـــتركة او أكثر بينهما."فالتشـــبيه وســـيلة لكشـــف الغامض وتقريب البعيد وايضـــاح المبهم"[٧٠]التشبيه لغة هو: الحاق شيء بشيء اخر أو صفة بصفة اخرى وهو اظهار الخفي الى الجلي. أما اصـطلاحا: فهو عقد مماثلة بين امرين أو اكثر قصـد اشـتراكهما في صـفة أو بأداة أو بغيرها لغرض يقصده المتكلم .أو هو: الجمع بين شيئين او الاشياء في المعنى بواسطة الكاف او نحوها لأثبات حكم من احكام المشبه به بالمشبه و هو: الحاق امر بأمر (المشبه به بالمشبه)في المعنى المشترك (وجه الشبه)

بأداة ملفوظة او مقدرة لغرض بلاغي .[٧١] ،ويعد التشبيه "نوع مستحسن من انواع البلاغة وقد ورد في كتاب الله تعالى ... وان الشيء يشبه بالشيء تارة في صورته وشكله وتارة في حركته وفعله ،وتارة في لونه" [٧٢]وهو يقوم على طرفين اساسين هما (المشبه ، والمشبه به) ولابد من وجود مشاركة بينهما يسمى وجه الشبه، وان ما يربط المشبه بالمشبه به هي الأداة التي قد تكون موجودة أو محذوفة، فالتشبيه على أنه "عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر بأداة لغرض يقصد المتكلم للعلم"[٧٣]. ،وقد اشار الطبري إلى التشبيه في قصة ملكة سبأ في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٢] قال الطبري: "فقال لها: أهكذا عرشك؟ قالت: (كأنه هو"[٧٤]، الكاف للتشبيه أي ان يكون الشيء ليس هو ذاته وإنما يقاربه ويشابهه في اشياء كما وان جوابها فيه شك وتردد وذلك لاستحالة ان يكون هو في فكرها "فلما جاءت قيل لها (أهكذا عرشك) فعرفت وأنكرت . فلم تقل ،هو ولا ليس به . فقد قالت (كأنه هو) "[٧٥]، مع أنها عرفته تلميحاً بما اعتراه بالتنكير من نوع المغايرة في الصفات في قول سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾[النمل: ٤١] ، فكان ذلك مراعاة منها لحسن الأدب في محاورته عليه السلام [٧٦] ، ولما رأته من امر واندهاشها للشبه الحاصل بينه وبين عرشها فبدأ الخطاب ب (قيل) مبني للمجهول بإخفاء هوية السائل لان اهمية الامر يتعلق بمضمون السؤال (أهكذا) المكونة من عدة عناصر هي (أ)اداة الاستفهام + (ها) التنبيه + (ك) التشبيه + (ذا) اسم الاشارة)، " ولم يقل (أهذا عرشك) ولكن أمثل هذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً (قالت كأنه هو) فأجابت أحسن الجواب ، فلم تقل "هو هو" و "لا ليس به" وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقطع في المحتمل للأمرين ، أو لما شبهوا عليها بقولهم (أهكذا عرشك)شبهت عليهم بقولها (كأنه هو)مع أنها علمت أنه عرشها"[٧٧]. فهي كانت صاحبة ذكاء وفطنة عرفت بها فلم تجب بالإثبات ولا بالنفي القاطع وكأنها تترقب ردة فعل الطرف الآخر نهم فلم ترد ان تثيرالامر، وقد عرفت بأسلوبها وفي مجاراة الخطاب والتعامل بالمثل وقد بد هذا واضحا في كلامها مع قومها في قوله تعالى(قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ {٣٣} قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ {٣٤})(سورة النمل٣٣-٣٤) ففي هذه الآية يتضح اسلوب التعريض اذا كان خيار القوم الحرب (قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ) لكنها اختارت السلم من هنا تظهر شخصية المرأة التي تكره الحروب والتدمير فتجيب بالأسلوب ذاته لما احست منهم الميل الى الحرب في حين ارتأت الصلح والابتداء بما هو افضل ورتبت الجواب فزيفت ما ذكروه وارتهم الخطأ ليكون استسلامها مبرمجا ومبررا فقالت منذرة لهم وبما سيحل بهم (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) . وهذا الاسلوب انفرد به القرآن الكريم وابدع في التعبير عنه .

ثانياً: المجاز:

المجاز لغة: فمن جاز الشيء جوازاً إذا تعداه، وهو مصدر ميمي من جاز الشيء جوازاً اذا تعداه ويمكن أن يكون بمعنى اسم المكان من قولهم (جاز الطريق) ،أما اصطلاحاً فـ" هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة تمنع من إيراد المعنى الحقيقي"[٧٨] ولم يخرج المعنى اللغوي عن المعنى

الاصطلاحي "فاشتقاقه من جاز الشيء يجوزه اذا تعداه وعدل عنه . فاللفظ اذا عدل به عما يوجبه اصل الوضع فهو مجاز على معنى انهم جاوزوا به موضعه الاصلي أو جاوز هو مكانه الذي وضع فيه اولاً"[٧٩] أي ان للكلمة معنين المعنى الوضع ما وضع له اللفظ والثاني غير ما وضع له وهو المفهوم من السياق ، ولابد من وجود علاقة بين المعنيين وتكون العلاقة أما علاقة مشابهة كما في الإستعارة أو علاقة غير المشابهة كما في المجاز المرسل التي تعتمد على اساس وجود علاقة بين المعاني لكنها ليست مشابهة أو ان تكون التغيير في حركة الإسناد حيث يسند الفعل أو ما في معناه الى غير فاعله الحقيقي كما المجاز العقلي، وقد كثر الكلام عن المجاز واختلفت الآراء فيه كانت قضية المجاز قديما وحديثا مثار نزاع وجدل بين العلماء فقد اختلف في وقوعه في القرآن وان كان المثبتون له اكثر من النافين [٨٠].ولعل اقدم كتاب اخذ تسمية المجاز هو كتاب (مجاز القرآن) لمعمر بن مثنى (ت ٢١٠هـ) ،وقد ذكر الطبري المجاز في تفسير في قوله تعالى: (وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها) [القصص: ٥٨] حيث فسرها الطبري قائلاً: "وكم من قرية أبطرتها معيشتها فبطرت وأشرت وطغت فكفرت ربها، وقيل: بطرت معيشتها فجعل الفعل للقرية، وهو في الأصل للمعيشة، كما يقال: أسفهك رأيك فسفهته، وأبطرك مالك فبطرته، والمعيشة منصوبة على التفسير"[٨١] فالمجاز تمثل في إسناد فعل (البطر) للقرية والمراد اصحاب القرية واهلها الذين يسكنون فيها ، فالمجاز عقلي قال الفراء" ابطرتها معيشتها ، كما تقول: ابطرك مالك وبطرته ،واسفهك رأيك فسفهته . فذكرت المعيشة لأن الفعل كان لها في الأصل فحول إلى ما اضيف إليه "[٨٢]و "البطر: دهش يعتري الانسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها الى غير وجهها"[٨٣] وقيل في معنى البطر أي التكبر "والمعيشة هنا اسم مصدر بمعنى العيش والمراد حالته فهو على حذف مضاف دل عليه المقام "[٨٤] وقد ذكر الزمخشري ان فيها حذف فقال "اصله بطرت ايام معيشتها" [٨٥] في حين ذهب النسفي الى وجود حذف "بحذف الجار والمجرور وايصال الفعل ، أي في معيشتها" [٨٦] يتضح ان في الآية تعبير بلاغي غير مباشر عن المعنى اعطى دلالة متعدة كلها تسير في تحديد مسار المعنى المجازي المقصود في التعبير القرآني .وفي ذكره للمجاز في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] ، حيث قال: "فإن قال قائل: وكيف قيل (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة) وكيف تنوء المفاتيح بالعصبة ،وإنما العصبة هي التي تنوء بها ؟ قيل: اختلف في ذلك أهل العلم بكلام العرب ، فقال بعض أهل البصرة: مجاز ذلك: ما إن العصبة ذوي القوة لتنوء بمفاتيح نعمه" [٨٧]، ففي الآية مجاز عقلي باسناد الفعل (لتنوء) بالمفاتيح والمراد به اصحاب المفاتيح وهو العصبة "(ما)بمعنى الذي في موضع نصب ب(اتينا)،و(إن)واسمها وخبرها صلة الذي ، ولهذا كسرت (إن)والمفاتح جمع مفتح بالكسر ، وهو مايفتح به"[٨٨] (ان مفاتحه)"أي مفاتيح الاغلاق التي هو مدفون فيما وراء ابوابها (لتنوء) أي تميل بجهد ومشقة لثقلها (بالعصبة) أي الجماعة الكثيرة التي يعصب –أي يقوي–بعضهم بعضا ،"[٨٩] وكل ذلك فيه من المبالغة ما تستبعده العقول وجاء التأكيد في قوله (اولي قوة) .

ثالثاً: الاستعارة :

الاستعارة لغة من العارية وقد جمع عبد القاهر الجرجاني بين المعنى اللغوي والاصطلاحي حيث قال في تعريف الاستعارة "إعلم ان الإستعارة في الجملة أن يكون لفظ الاصل في الوضع اللغوي معروفاً تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقل إليه نقلاً غير لازم فيكون كالعارية "[٩٠] فبين إنه عبارة عن نقل المعنى من ما وضع له اولاً الى معنى آخر ، ثم بين علاقته بالتشبيه فقال في الاستعارة هي"ان تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه ، وتظهره ، وتجيء الى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه تريد أن تقول: رأيت رجلاً هو كالآسد في شجاعته وقوة بطشه سواءً، فتدع ذلك وتقول : رأيت أسدا "[٩١] ،وقد وردت الاستعارة عند الطبري في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ – ٢٢٥] ، قال الطبري"(ألم تر أنهم في كل واد يهيمون) يقول تعالى ذكره: ألم تر يا محمد أنهم يعني الشعراء في كل واد يذهبون كالهائم على وجهه على غير قصد بل جائراً على الحق وطريق الرشاد وقصد السبيل، وإنما هذا مثل ضربه الله لهم في افتتانهم في الوجوه التي يفتنون فيها بغير حق ، فيمدحون بالباطل قوما ويهجون آخرين كذلك بالكذب والزور "[٩٢] ، "أي في كل نوع من الكلام يغلون في المدح والذم وسائر الانواع المختلفات ،ومنه الهائم على وجهه المخالف للقصد الذاهب على وجهه"[٩٣] ،وقد تمثلت الاستعارة في قوله (الم تر انهم في كل واد يهيمون)"والرؤية في (الم تر)قلبية لان الهيام والوادي مستعاران لمعاني اضطراب القول في اغراض الشعر وذلك مما يعلم لا مما يرى . والاستفهام تقريري، واجري التقرير على نفي الرؤية لإظهار أن الإقرار لا محيد عنه"[٩٤] ،ان اقتران الوادي بالهيام له دلالة خاصة كلاهما يشتركان في صفة الضياع والتيه فقال والزمخشري "ذكر الوادي والهيوم فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو في المنطق ومجاوزة حد القصد فيه"[٩٥]

رابعاً: الكناية:

فن من الفنون البلاغية التي يقوم على الاخفاء والاظهار والتعبير عن المعنى بغير لفظه والايحاء والتلميح اليه، والكناية لغة: هي التكلم بالشيء والمراد غيره [٩٦] ،أما الكناية اصطلاحاً هي "ان يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به اليه، ويجعله دليلاً عليه "[٩٧]–هي اللفظ المستعمل في غير ما وضع له مع جواز ارادة المعنى الاصلي لعدم وجود قرينة مانعة من ارادته

"الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء الى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك كما تقول فلان طويل النجاد لينتقل منه الى ما هو ملزومه وهو طول القامة –ومن كثرة الرماد الى_الكرم.–... وسمى هذا النوع كناية لما فيه من إخفاء وجه التصريح ودلالة كنى على ذلك لآن(ك ن ى) كيفيما تركبت دارت مع تأدية معنى الخفاء من ذلك كنى عن الشيء يكنى اذ لم يصرح به ومنه الكنى وهو ابو فلان وابن فلان وام فلان سميت كنى لما فيها من اخفاء وجه التصريح بأسمائهم الاعلام "[٩٨] أي اظهار اللفظ غير المقصود

وإخفاء المعنى المقصود "الكناية لفظ اريد به لازم معناه ، مع جواز إرادته معه"[٩٩] بعبارة اوضح هي: اللفظ المستعمل لغير ما وضع له لعلاقة مع قرينة لا تمنع من إيراد المعنى الحقيقي. ،وهذا ما عرفه به القزويني فقال "الكناية لفظ اريد به لازم معناه مع جواز اردته معه "[١٠٠] امكانية ان يكون المعنى الحقيقي فهو وارد وهذا هو الفرق الاساس بين المجاز والكناية ففي المجاز لا يمكن إيراد المعنى الحقيقي ،أي : هي ان تريد المعنى وتعبر عنه بغير لفظه ،وهو ما أشار إليه الطبري في تفسير قوله تعالى عن فرعون: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤ – ٣٥]، قال الطبري: "يقول يريد أن يخرج بني اسرائيل من أرضكم إلى الشام بقهره إياكم بالسحر ، وإنما قال: يريد أن يخرجكم فجعل الخطاب للملأ حوله من القبط والمعني به بنو اسرائيل ، لأن القبط كانوا قد استعبدوا بني اسرائيل ، واتخذوهم خدماً لأنفسهم ومُهّاناً فلذلك قال لهم: (يريد أن يخرجكم) وهو يريد: أن يخرج خدمكم وعبيدكم من أرض مصر إلى الشام"[١٠١]، فهو يبين حالهم بدون عبيد ولا خدم وانهم سيضطرون إلى خدمة أنفسهم، وفي قول فرعون هذا فإنه يستعدي قومه على موسى ويحذرهم أن تكون له شيعة يناصرونه، ومما يدل على مقصد فرعون أنه كان يعني بقوله بني اسرائيل، أن موسى عندما جاءه طلب منه أن يرسل معه بني اسرائيل، فهابه الأمر فابتدأ بمعاداته إذ أنه لو أرسل بني اسرائيل مع موسى فسيهون أمره وملكه، والملاحظ في خطاب فرعون هنا ، أنه قد تنازل عن ادعاء الربوبية دون قصد منه بعد أن وقف وذهل امام معجزات موسى عليه السلام ، وإلى مؤامرة القوم وائتمارهم وتنفيرهم عن موسى وإظهار الاستشعار عن ظهوره واستيلائه[١٠٢] ، وهو بعد أن كان مستقلا بالرأي والتدبير بدأ بمشاورة قومه[١٠٣]، فبان ضعفه وظهر شعوره بالخوف ، وان أسلوب التعريض واضح بين فهو من جبروته لم يخاطب بني اسرائيل مباشرة ، لأنه لا يسمح لهم حتى أن يتكلموا أو يحاوروه وإنما خاطب الأقباط وعنى بني اسرائيل. (يريد ان يخرجكم من ارضكم)"أي هذه التي هي قوامكم (بسحره) أي بسبب ما أتى به منه ، فإنه يوجب استتباع الناس فيتمكن مما يريد بهم ، ثم قال لقومه –الذين كان يزعم أنهم عبيده وأنه إلههم – ما دل على انه خارت قواه ،فحط على منكبيه كبرياء الربوبية ، وارتعدت فرائصه حتى جعل نفسه مأموراً بعد أن كان يدعي كونه آمراً بل الهاً قادراً(فماذا تأمرون) أي في مدافعته عما يريد بنا"[١٠٤]

الخاتمة

وفي الختام نقف لنقول هذا غيض من فيض عن بعض ما سمح به الوقت ومساحة البحث من ملاحظ بلاغية عند مفسرنا الطبري وقفنا عندها وغيرها الكثير عنده ونقف لنذكر اهم نتائجنا :

١– ان العلاقة بين التفسير والبلاغة هي علاقة تبادلية واضحة فقد فالبلاغة منذ نشأتها كانت مرتبطة بالتفسير، ويعد القرآن الكريم اهم عامل من عوامل تطور الدرس البلاغي وإن البلاغة والتفسير هدفهما هو توضيح المعنى بأدق واصح صوره وتحقيق التأثير والاقناع .

٢– لم يكثر الطبري من استعمال المصطلحات البلاغية وذلك لقلتها عنده ، لاسيما علمي البيان والبديع .الا ان الكثير من الدلالة اللغوية التي ذكرها اسهمت واغنت في توضيح الظاهرة البلاغية خدمة

للمعنى وكانت معيناً لمن جاء بعده فكان تفسيره بداية لمرحلة جديد لدخول هذه المفاهيم والمصطلحات الى عالم التفسير .وأنَّ تفسير الطبريّ حفظ نظرات السلف إلى الأسلوب القرآني. وهي نظرات يمكن لمؤرِّخ البلاغة من غير شك أن يُفيد منها بعد الجمع والاستقصاء والترتيب والدرس .

٣-من النظرات الأسلوبية الواردة في تفسير الطبريّ والتي بدت واضحة لديه هو أسلوب الإيجاز لمكانة هذا الأسلوب في الذهنيّة العربيّة، احتل مكانة خاصة في البلاغة، واعتبر من مناحي الإعجاز في الأسلوب القرآني ،ولم يُخْفِ الطبري انفعاله بروعة الإيجاز في القرآن الكريم .

٤- امتاز تفسير الطبري بكثرة الكلام البليغ خصوصًا فهو مطبوع في تأليفه، كذلك التبصير في معالم الدين، وفيه بلاغة في التعبير، ومتانة وعمق في الأسلوب والفكرة كما تتميز مؤلفاته بقوة عبارته ورصانتها، وتميز عرضه .

٥-ان قلة الملاحظ البلاغية عنده لسببين اولهما : ان المصطلحات البلاغية لم تستقر في وقته بعد ، وثانيهما : طبيعة منهجه في التفسير في ايراد الاقوال المأثورة واحاديث مرفوعة للرسول (صلى الله عليه وسلم) واقوال الصحابة والتابعين واتباع التابعين يوردها بأسانيدها حيث يعد تفسيره من وائل التفسير بالمأثور ويأتي بعد ابن عباس في ذلك .

٦-تفاوت الملاحظ البلاغية عند الطبري إذ نجد إن علم المعاني احتل المســـاحة الأكبر وذلك لارتباطه بالنحو واللغة التي كانت شــغلهم الشــاغل آنذاك ،فيما القلة والنزر في علمي البيان والبديع التي ظهرت متأخرة ، كما يتضح من خلال الدراسة في ملاحظاته البلاغية أنه قد افاد من سابقيه من اهل اللغة ممن كانت لهم إشارات ووقفات بلاغية وان لم يكن المصطلح قد استقر والنقل عنهم كـ سيبويه والفراء وابي عبيد وغيرهم إلا ان سلطة المفسر كانت اقوى عليه من سلطة اللغة، وهو يستهل تفسيره في الآية بالشرح اللغوي مدخلاً وممهداً لأقوال السلف .

قائمة المصادر والهوامش

(١) ينظر : Suliman Husain Alomirat((سُليمان حُسَين العميرات 199)Saffet Köse(– العلاقةُ بين علم البلاغة وتفسير القرآن الكريم / صفوت كوسا.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، محمد حسنين ابو موسى: ٨

(٣) التفكير البلاغي عند العرب ، حمادي صمود: ٤٧

(٤) التلخيص في علوم البلاغة ، القزويني: ٣٣.

(٥) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: د.عبدالعظيم ابراهيم المطعني: ١/ ٥٧–٥٨

(٧) ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ١/٦١–٦٤

(٨) ينظر الكتاب ، سيبويه: ١/ ١٥ ، ١٦٩، ٢٣١.

(٩)ينظر: قضايا اللغة في كتب التفسير: الهادي الجطلاوي: ٥٢–٥٣ .

(١٠) التفكير البلاغي عند العرب ، حمادي صمود: ٤٠

(١١) ينظر: البيان والتبيين ، الجاحظ: ١/٨١ ، ٩١ ، ٢٣٧ .

(١٢) ينظر: البديع ، ابن المعتز: ١

(١٣) ينظر: م .ن : ٧٦ ، ١٠٨ ، ١٢٤ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦٦ .

(١٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن ، الزركشي: ٢/١٧٥

(١٥) قضايا اللغة في كتب التفسير: ٨٠

(١٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الطبري: ١/٣.

(١٧): قضايا اللغة في كتب التفسير: ٨١–٨٢

(١٨) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٨ .

(١٩) الكشاف: ٢٣

(٢٠) ينظر: م .ن: ٢١–٢٢

(٢١) عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح ، بهاء الدين السبكي : ١/٩٦

(٢٢) دلائل الاعجاز ،عبد القاهر الجرجاني: ٨١

(٢٣) علم المعاني في الموروث البلاغي تأصيل وتقييم ، د.حسن طبل: ٧

(٢٤) ينظر: علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني , د. بسيوني عبدالفتاح فيود: ٤١–٤٢ .

(٢٥) لسان العرب: ١٢/ ٤٨١

(٢٦) البرهان في علوم القرآن : ٣/ ٤٥ ، وينظر: الكتاب: ١/ ٤٥٤

(٢٧) الفوائد المشوق ، ابن القيم الجوزية: ١١٧

(٢٨) جامع البيان : ١٩/٨٦ .

(١) الكشاف: ٧٥٩ ، وينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، النسفي: ٢/ ١٩٧.

(٣٠) ينظر: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الرازي: ٣٤/٥٠٢ ؛ أنوار التنزيل واسرار التأويل ، البيضاوي: ٤/١٣٨ .

(٣١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور: ١٩/١٢٧ .

(٣٢) ينظر: الدر المصون ، السمين الحلبي : ٨/٥١٩ .

(٣٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٩/١٢٧ .

(٣٤) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي: ١٦٦/١٩ .
(٣٥) التحرير والتنوير: ١٩/ ٢٤٧.
٤الكشاف: ٧٨٠
(٣٧) دلائل الاعجاز: ١٠٦
(٣٨) الكتاب: ١/ ٣٤ ، وينظر: دلائل الاعجاز: ١٠٧
(٣٩) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٢٧٤-٣١٨
(٤٠) جامع البيان: ١٧٣/١٩ .
(٤١) معاني القرآن ، الفراء: ٢ /٢٩١
(٤٢) المفردات في غريب القرآن ، الراغب الاصفهاني : ٤٥٧
(٤٣) الكشاف: ٧٨١
(٤٤) المفردات: ٤٤٩
(٤٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، البقاعي : ٥/ ٤٢٢.
(٤٦) جامع البيان: ٧/٢٠ .
(٤٧) التحرير والتنوير: ٢٠/ ١٢
(٤٨) دلائل الاعجاز: ١١١
(٤٩) الاتقان في علوم القرآن ، السيوطي : ٢/ ١٩٩.
(٥٠) ينظر: عروس الافراح :٥٨٦/١ ، و علم المعاني ،بسيوني عبدالفتاح :٣٩٤ .
(٥١) مفتاح العلوم: ٢٧٧/١ .
(٥٢) ينظر: عروس الافراح: ١/ ٥٨٦-٥٩١
(٥٣) الاتقان في علوم القرآن ، السيوطي: ٢/ ١٣٩
(٥٤) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ٢/ ٥ .
(٥٥) ينظر: جامع البيان : ٩٩/١٩ ، ١٥٥
(٥٦) ديوان زهير بن أبي سلمى : ٣٨ .
(٥٧) جامع البيان: ٩٩/١٩ .
(٥٨) الكشاف: ٧٦٢.
(٥٩) ينظر: الجامع لأحكام القران: ١٠٩/١٣ .
(٦٠) ينظر: التحرير والتنوير: ١٣٩/١٩ .
(٦١) جامع البيان: ١٥٥/١٩ .
(٦٢) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية: ٢٥٠/٤ ـ ٢٥١ .
(٦٣) الجامع لأحكام القران: ١٦٠/١٣ .
(٦٤) جامع البيان: ٣٠/٢٠ .
(٦٥) الكشاف: ٧٩٢ .
(٦٦) ينظر: التحرير والتنوير: ٥٣/٢٠ .
(٦٧)) البيان في اعجاز القرآن ، الخالدي: ٧١
(٦٨) مفتاح العلوم ، السكاكي: ١٥٦، وينظر: عروس الافراح: ٢/ ٥
(٦٩) م .ن : ١٥٧
(٧٠) ينظر: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية: واجدة مجيد الاطرقجي ، ٧٣)

(٧١) ينظر: عروس الافراح: ٢/ ٢٠
(٧٢) الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي: مصطفى الصاوي الجويني : ٦٣
(٧٣) جواهر البلاغة ، احمد الهاشمي: ٢١٩/١ .
(٧٤) جامع البيان: ١٩/ ١٩٠ .
(٧٥) معاني القران: ٢/ ٢٩٤-٢٩٥ .
(٧٦) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢٨٨/٦ .
(٧٧) مدارك التنزيل : ٢/ ٢٢٧.
(٧٨) اساليب البيان ، فضل حسن عباس: ٢٧٢
(٧٩) الفوائد المشوق: ١١
(٨٠) ينظر: البرهان: ٢/ ٢٧٢ ، وينظر: الاتقان: ٢/ ٩٤
(٨١) جامع البيان: ١١١/٢٠ .
(٨٢) معاني القرآن: ٢/ ٣٠٨
(٨٣) المفردات: ٦٠
(٨٤) التحرير والتنوير: ٢٠/ ١٥٠
(٨٥) الكشاف: ٨٠٦
(٨٦) مدارك التنزيل: ٢/ ٢٥٦
(٨٧) جامع البيان: ٢٠/ ١٢٦
(٨٨) مدارك التنزيل: ٢٥٩/٢-٢٦٠
(٨٩) نظم الدرر: ٥/ ٥١٧
(٩٠) اسرار البلاغة: ٢٠٠، ٣١٧
(٩١) دلائل الاعجاز: ٦٧
(٩٢) جامع البيان: ١٤٧/١٩ .
(٩٣) المفردات: ٥٢٥ .
(٩٤) التحرير والتنوير: ٢٠٩/١٩
(٩٥) الكشاف: ٧٧٣. ، وينظر مدارك التنزيل: ٢/ ٢١٣
(٩٦) ينظر: لسان العرب: ٢٣٣/١٥
(٩٧) دلائل الاعجاز: ٦٦
(٩٨) مفتاح العلوم ، ١٨٩
(٩٩) عروس الافراح: ٢/ ٢٠٦
(١٠٠) التلخيص: ٣٣٧ ، وينظر: الايضاح: ٢/ ٤٥٦
(١٠١) جامع البيان: ٨٥/١٩ .
(١٠٢) ينظر: انوار التنزيل: ١٣٧/٤ ؛ ارشاد العقل السليم: ٢٤١/٦ ؛
(١٠٣) ينظر: ارشاد العقل السليم: ٢٤١/٦ .
(١٠٤) نظم الدرر: ٥/ ٣٥٨